المأساة الوجودية في « اللص والكلاب »

بقلم إياد أحمد سليم

تنشأ المأساة الوجودية عامة عن عجز ارادة الانسان امام النواميس . فالانسان الوجودي اليوم يجد نفسه مضطرا لان يلتزم موقفا ايجابيا تجاه مشكلات وجوده ، كما يجد ان عليه ان يختار سبيل ذلك الموقف وطريقه ، وان يكون مستعدا لتحمل مسؤولية ذلك الاختيار كاملة . ولكن حريته في الاختيار تصطدم بحاجز من الضباب مرده عدم الايمان بمثل عليا معينة ، وبعالم غيبي وراء هذا العالم وخارج هذا الوجود المحسوس . ومن هنا كان الاصل في تولد المأساة الوجودية عند الانسان المعاصر . ومن هنا كان ضياعه وقلقه ، وكان اغترابه وتخبطه . وهذه كانت بالضبط مأساة سعيد مهران في « اللص والكلاب » :

خرج سعيد من السجن وهو لا يفكر الا بعالم واحد هو عالم وجوده ، ويصر على تصفية مشكلاته بنفسه وفي هذه الدنيا بالذات . وانصرف بكل اهتمامه الى معالجة شؤونه الحياتية الخاصة ، والى مشكلاته الوجودية التي رفض ان يترك للعادل الاعظم امر تسويتها في عالم وراء هذا العالم وحياة بعد هذه الحياة . اذ ان عالم الاخرة والغيب الذي كان يحدثه عنه الشيخ علي الجنيدي بالرموز لم يكن ليخطر له ببال ، او ليجد مكانا في عقله وشعوره . ولما كان الشيخ علي الجنيدي ـ مثلا ـ يقول له «(١)» : « توضأ واقرأ » ، كان سعيد يجيبه بلهجة شاكية ، وبانصراف كلي الى مشكلاته الحياتية ووجوده الواقعي قائلا : « انكرتني ابنتي ، وجفلت مني كأني شيطان ، ومن قبلها خانتني امها !.. خانتني مع حقير من اتباعي ، تلميذ كان يقف بين يدي كالكلب ، فطلبت الطلاق محتجة بسجني ثم تزوجت منه . » .. ولما كان يعود الشيخ ليقول له برقة ثانية وثالثة الخ : « توضأ واقرأ » كان سعيد ينفجر قائلا باصرار وبعبوس وانفعال : « ومالي ، النقود والحلي ، استولى عليها ، وبهاصار معلما قد الدنيا وجميع انذال العطفة اصبحوا من رجاله ... لم يقبض علي بتدبير البوليس كلا كنت كعادتي واثقا من النجاة ، الكلب وشى بي ، بالاتفاق معها وشى بي ، ثم تتابعت المصائب حتى انكرتني ابنتي .. »

وهكذا كان سعيد مهران لايحس بعالم غيبي قد لا يكون وقد لا يوجد ، ولا يعترف الا بالواقع الموجود. وكان لا يرى غير نفسه وسط الاحداث التي اصطدم بها ، ولا يهتم الا بمشكلاته والامه التي طغى شعوره بها على كل شعور اخر ، وحتى على شعوره بحب نور الطيبة . ومن هذا الاحساس العميق بالوجود ـ وبوجوده الواقعي هو بالذات ـ كان على سعيد ان يختار الطريق الذي سيلتزمه لحل مشكلاته بنفسه . ومن حتمية هذا الاختيار وضرورته وسط ظلمة وجهل بالحقيقة ، وبعيدا عن اي مرشد او معين (خاصة بعد ان تخلى عنه رؤوف علوان وخذله) ، وامام تحمل مسؤولية ذلك الاختيار كاملة ، من كل هذا نشأت مأساة سعيد مهران العنيفة.

لقد رأى سعيد الفساد والخيانة والظلم الاجتماعي والاختلال يطبق على كل ما حوله مثل قبة السماء . وارد ان يغير كل ذلك ويتحداه ويحاربه . لكنه عجز وحده بعد ان اصطدم بجبروت النواميس وقوة القوانين العاتية ، وبمقاومة قوى الشر والفساد ذاتها . ومن هنا كانت حياته ـ في القصة ـ وحدة وغربة وضياعا والما ، وفشلا انتهى بضياع تلك الحياة وتحطيمها : لقد اصطدم سعيد بالنواميس منذ خرج من السجن ليواجه الحياة من جديد. ذهب يحاول استرجاع امواله وكتبه وابنته فوجد القانون والسلطة والشريعة تقف كلها في وجهه . ثم اراد ان ينتزع حقوقه تلك بنفسه ، وشرع في العمل فوجد القانون يحمي الخونة واللصوص الحقيقيين . وغضب سعيد ونقم ، وكفر بكل الشرائع والقوانين ، وبكل النواميس . ووقف يفكر ويتامل فيما حوله ، بل وعاد بذاكرته الى الماضي فلم يجد الا الظلم والظلام ، والا الفساد والاختلال . ووجد انه لا بد له من ان ييأس وان يفكر بعدل هذه الدنيا الفاشمة. اذ اي عدل هذا الذي يبيح لامه ان تموت لانها لا تملك ثمن الدواء ؟! واين العدل عندما يشي به شريكه اللص عليش ليتزوج من امرأته ويستولي على امواله ـ بصرف النظر عن مصدر تلك الاموال ـ !! وما هو هذا العدل والقانون الذي يحول دونه ودون ابنته؟ وهل من العدل في شيء ان يحمي رجال البوليس والمخبرون بعض اللصوص ويعاقبوا البعض الاخر؟ .. ووقف سعيد وسط كل هذا الاختلال يعلن عزمه على التمرد والصراع وعلى التحدي والكفاح . وعن ذلك التحدي للنواميس والسلطة ، وللشرائع والقوانين ، وعن التصادم الفظيع مع قوى الشر والفساد نتج الصراع الدامي وتولدت المأساة العنيفة في « اللص والكلاب » .

اما الالتزام الوجودي في المأساة فواضح جلي : لقد صمم سعيد مهران على محاربة الخونة ، واللصوص الحقيقيين ، والانتهازيين الوصوليين الذين يخونون مبادئهم ويتنكرون لضمائرهم واقوالهم وتعاليمهم ، امثال نبوية وعليش ورؤوف علوان . وكان سعيد لا يجد مفرا من الكفاح ضد قوى الفساد هذه وضد شر هذا العالم الذي اصابه منه نصيب وافر ، وذلك على الرغم مما في ذلك من صعوبة ومسؤولية وتضحية . ولقد وضع امر هذا الالتزام والمسؤولية المترتبة عليه امام التساؤل ، فوجد انه لا مهرب له منه مهما كان الثمن. يقول : « هل يمكن ان امضي في الحياة بلا ماض فاتناسى نبويه وعليش ورؤوف ؟ ولو استطعت لكنت اخف وزنا واضمن للراحة وابعد عن حبل المشنقة ، ولكن هيهات ان يطيب العيش الا بتصفية الحساب . لن انسى الماضي لسبب بسيط هو انه حاضر ـ لا ماض ـ في نفسي » . (ص ٤٨) ثم يقول في مكان اخر محدثا نفسه عن نفسه: « ولكنه ـ هو ـ لن ينثني عن عزمه ، ولو عاشت سنتاء وحيدة العمر كله . ذلك ان الخيانة بشعة جدا ياستاذ رؤوف .. الخيانة بشعة ياعليش . ولكي تصفو الحياة يجب اقتلاع الخبائث الاجرامية من جذورها . » . ص ٧٦ واخيرا تطور معنى هذا الالتزام في نفس سعيد وتعمق وتأصل فلم يعد يفكر براحة الانسحاب ، ولا بضمير سنتاء ومستقبلها . نسي كل ذلك عندما تحول الالتزام عنده الى شبه رسالة مقدسة وهبها حياته كلها :

« .. وانت هل لحياتك التالفة من معنى الا ان تقفي على اعدائك.. ولكن ما معنى حياتك ان لم تؤدب اعداءك ؟ ولن تحول قوة دون تأديب الكلاب. اجل لن تحول دون ذلك قوة .. فلكي يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب ان اقتلك (يا رؤوف) . لتكن اخر غضبة اطلقها على شر هذا العالم.. » ص ١٢٣ و ١٢٥

بعد هذا التصميم الشديد والاصرار البالغ على الالتزام وعلى

«١» راجع الحوار بينهما في الصفحات ٢٨ـ٣١ وغيرها .. في القصة

محاربة قوى الشر من حوله ، بدأ سعيد بالعمل . وكانت كل عناصر مأساته كامنة في الطريق الذي اختاره للعمل . لقد حمل مسدسه وخرج في الظلام فردا وحيدا ، تعمى النقمة بصيرته وتلهب مشاعره وتحثه على التسرع في الانتقام ، وتجعله يطلق الرصاص دون تروٍ ، بلا وعي ، وعلى غير هدى . وكان من غير المعقول لمثل هذا الشخص بطريقته الفرديةغيرالمنظمة، وبنفسيته المضطربة الهائجة ان ينجح في تحقيق شيء ايجابي . وهذا ما حصل بالفعل . ومن هنا يمكن تفسير الفشل الدائم الذي حالف سعيد مهران اثناء حربه لقوى الفساد وممثليها من حوله . فقوى الفساد لم تكنضعيفة وانما كانت قوية متحدة متحالفة ومسيطرة على القانون والسلطة والثروة ، وعلى كل مرافق الحياة بما فيها الصحافة . اما سعيد مهران فكان ضعيفا وحيدا أعزل . نعم كانت ملايين الناس تحس به وتعطف عليه ، بل وتؤيده . ولكن تاييدها كان من النوع السلبي الذي لم يقدم لكفاحه شيئا على الصعيد العملي .وكان سعيد يدرك ذلك فيقول : « ... وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأماني الموتى . ص ١٤٨امامالدين فلم يقدم له شيئا البتة . لقد حاول سعيد ان يطلب حمى الدين وعونه ، لكنه لم يظفر منه حتى بالتعزية او بالتاييد السلبي الذي كان يظفر به من جماهير الناس كما يتضح في هذا الحوار بين الشيخ علي الجنيدي وسعيد مهران : « ص ٢٥ ـ ٢٦ » .

ـ انت تريدبيتاليسالا..

ـ ليس بيتا فحسب ، اكثرمنذلك ، اود ان اقول اللهم ارض عني..

فقال الشيخ كالمترنم :

ـ قالت المرأةالسماوية:« اما تستحي ان تطلب رضا من لست عنه براض ؟! » وضج الخلاء في الخارج بنهيق حمار ختم بحشرجة كالبكاء. وغنى صوت لا حلاوة فيه «البخت والقسمة فين » .

وهكذا قدر لسعيد ان يعاني وحده كل معاني المأساة الوجودية وعناصرها ، وجد نفسه وحيدا بلا نصير يعاني الوحدة ، والضياع والاغتراب ، وعدم الانتماء .

ها هو « وحيد بكل معنى الكلمة (ص ٩٨) « .. وحيد عليه ان يحذر حتى صورته في المرآة » (ص ٩٨) وعليه ان يكابد « الظلمة والصمت والوحدة مادامت الدنيا لاتريد ان تغير من عاداتها السيئة .. » ص١٠٥

وها هو يجد نفسه ضائعا : ضائعا منذ اللحظة التي انكرته فيها ابنته » لقد شعر ساعتها بان قلبه قد انكسر ، « انكسر حتى لم يبق فيه الا شعور بالضياع »ص ١٧ ضائعا بلا اصل وبلا جذور منذ تخلى عنه رؤوف علوان الذي خلقه ثم ارتد : « تخلقني ثم ترتد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد ان تجسد في شخصي ، كي أجد نفسي ضائعا بلا اصل وبلا قيمة وبلا أمل ، خيانة لئيمة لو اندك المقطم عليها دكا ماشفيت نفسي » (ص٤٧) واخيرا ضائعا بلا اهل وبلا مكان ولا بيت ولا مأوى منذ اللحظة التي خرج فيها من السجن وحتى لحظة مصرعه في العراء بين القبور .

وها هو يجد نفسه غريبا في دنيا طغى شرها ، واستفحل فيها امر طبقة القلة من الناس اللصوص الحقيقيين . لقد شعر بانه اصبح غريبا حقا منذ اللحظة التي وقف فيها امام مبنى جريدة « الزهراء » الضخم ، يوم ذهب يسأل عن رءوف علوان بعد مغادرته السجن مباشرة، وشعر بالاغتراب عندما ادرك ان رءوف قد اصبح من هؤلاء الذين كان قديما يرمق امثالهم بعين تود ذبحهم ، (ص٣٤) ثم ازداد شعوره بالاغتراب عندما وجد نفسه هاربا مطاردا ، وبعد ان هجر دنيا الناس الملوثة بالفساد ليقيم بجوار القرافة ، المكان الوحيد الذي لم يفسد هواؤه ، على حد قوله .

ليس هذا فحسب ، بل انه وجد نفسه ايضا مطاردا منذ اللحظة التي افرج فيها عنه : تطارده الاحداث ، ويطارده البوليس ، وتطارده الكلاب ، ويطارده ـ فوق كل هذا ـ الفشل والعذاب والعبث . وادرك انه « مطارد وسيظل مطاردا الى اخر لحظة من حياته » (ص٨٩) وازداد وعيا باحساس المطارد « فشارك الفئران والثعابين مشاعرها حين تتسلل» (ص١١٥ـ١٣٦) « وآمن سعيد بان الحوادث تطارده كالبوليس »(ص١٥٩) بعد اختفاء نور وقدوم صاحبة الشقة لتؤجرها لاول قادم . واخيرا « تضاعف احساسه بالمطاردة والوحدة والقلق ، وادرك انه لايمكن ان يستهين بكتلة الاعداء المفعمة شهوة وخوفا .. » (ص١١٧) وهكذا ايقن سعيد اخيرا انه قد هزم امام قوى اعدائه الاشداء ، وان حياته قد ضاعت عبثا : « اخيرا جاءت الكلاب وانقطع الامل . ونجا الاوغاد ولو الى حين . وقالت حياته كلمتها الاخيرة بانها عبث .. ولا أمل في الهروب من الظلام بالجري في الظلام . نجا الاوغاد وحياتك عبث (ص ١٧١ ـ ١٧٢)

ولكن ماهو المغزى الحقيقي وراء هذه المأساة الوجودية في « اللص والكلاب » عند نجيب محفوظ ؟ وهل حقا كانت جهود سعيد مهران وحياته عبثا ؟! لقد خرج سعيد من السجن ناقما على الدنيا الظالمة واناسها جميعا : المستكين النائم منهم ، والكلب الخائن ، واللص الحقيقي المتسلط المستغل . خرج ليعلن تمرده الصارخ على الفساد والظلم ،وعلى الاختلال الاجتماعي وفي طليعته الخيانة . خرج ليقضي على بعض الخونة انتقاما لما انزلوه به شخصيا من غدر وخذلان . وكان يدرك بان عليه ان ينتظر طويلا وان يدبر امره قبل ان ينقض على اعدائه كالحداة . لكنه لم ينتظر ، او هو لم يستطع الانتظار بل اندفع يعلن نقمته بلا عقل وبلا وعي وبلا تنظيم ، اندفع وحيدا بعيدا عن اي مرشد او معين يعالج اموره الشخصية فحسب ، وصمم سعيد على قتل رءوف علوان رمز الخيانة والعبث ، لان « الرصاصة التي تقتل رءوف علوان تقتل في الوقت نفسه العبث ، والدنيا بلا اخلاق ككون بلا جاذبية ، ولست اطمع

شعر

من منشورات دار الاداب

وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

في اكثر من ان اموت موتا له معنى » . (ص١٤٢) كما يقول سعيد : اما عدل القضاء فكان سعيد قد كفر به منذ خرج من السجن ليجد القانون يحمي عليش سدره ويحول بينه وبين ابنته وماله. ثم انه كيف يطمئن على قضاته وبينه وبينهم « خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟! انهم اقرباء للوغد (رءوف علوان) ويفصل بينه وبينهم قرن من الزمان » .(ص ١٤٧ ـ ١٤٨) ولكنه هو نفسه واثق انه على حق ، وقد زارته روح خادم رءوف علوان لتقول له بان « ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب .. » وقاضي اليسار غمز له بعينه فليبشر. وهو واثق بان مهنته مشروعة ،مهنة السادة في كل زمان ومكان . مهنة الانبياء والعظماء الذين وقفوا ليغيروا الكون من اساسه ويعيدوا بناءه من جديد ، وليتحدوا تقاليد الناس التي تعفنت وبليت ، وفسادهم الذي طفى واستفحل . وهو موقن بان القيم الزائفة حقا هي فقط التي تقدر حياته بالملاليم وموته بالف جنيه . وهو موقن ايضا بانه عظيم : «عظيم بكل معنى الكلمة عظمة هائلة ولكنها مجللة بالسواد عشيرة للمقابر ولكن عزتها ستبقى بعد الموت .. ان من يقتلني انما يقتل الملايين . انا الحلم والامل وفدية الجبناء ، وانا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه .. » (ص ١٤٨)

كان بعض الناس يرى في سعيد « منبها مسليا في الملل الراكد » . ولكن الحقيقة كانت اكبر من ذلك واعمق . ان اكثرية الناس كانت تتحدث عنه كأنه عنترة ، وكانت مشغولة باخباره تعطف عليه ولا تخافه. وكانت مأساته الحقيقية ـ كما يقول ـ : « انني رغم تأييد الملايين اجدني ملقى في وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع غير معقول ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ، ولكنها « وهنا كل المغزى » ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أي حال ،كي يطمئن الاحياء والاموات ولا يفقدوا اخر أمل .. (ص ١٣٩)

واذن فمحاولة تمرده كلها لم تكن الا هذا الاحتجاج الدامي المناسب الذي كان لابد له من ان يسبق الثورة القادمة لا محالة لتقضي على ظلام العالم القديم وعلى فساده وشره . لم تكن الا هذا الاحتجاج الدامي المناسب الذي جاء ينبه النيام الذين هم اصل البلاء لانهم هم خلقوا نبوية وعليش ورءوف علوان .. واخيرا لم تكن الا هذا الاحتجاج الدامي المناسب الذي جاء يمهد للعمل المنظم ويبشر بالفجر القريب قبل ان يفقد الناس اخر أمل وسط كل ذلك الظلام والصمت والركود والملل المحيط بهم . وكم كان يود سعيد مهران « لو يتصل بالناس ليعرب لهم عما يهز صدره في الصمت والوحدة ، وليؤكد لهم بانه سينتصر ولو بعد الموت . انه وحيد حيال الجميع ولكنهم لايعلمون . لم يفقهوا بعد حديث الصمت والوحدة ، ولا يفطنون الى انهم ايضا لهم حديث صمت ووحدة ، والمرآة التي تعكس صورهم باهتة مضللة فيتوهمون انهم يرون قوما غرباء . » (ص ١٠٧)

وهكذا فان كفاح سعيد مهران ـ في الحقيقة ـ لم يذهب سدى ، وحياته لم تذهب عبثا ، وانما كان في تمرده على فساد الحاضر واختلاله يمهد لبعث المستقبل واصلاحه . وان يكن سعيد قد اطلق صرخته في « الليل الراسخ والظلام جدار اسود يسد الطريق » ، الا انه كان يعلم بان صرخته تلك كانت تحمل بذور النجاح ـ ولو بعد موته ـ لانها كانت تمهد الطريق امام العمل المجدي ، وتبشر بالفجر القادم ، وتوقظ النيام ـ اصل كل بلاء ـ وتجعلهم يتنبهون ويستعدون لاستقبال شمس اليوم الجديد . وقد كان سعيد ـ الى اخر لحظة من حياته ـ موقنا بان الاوغاد قد نجوا فقط الى حين . وكان ـ حتى وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ـ يرى ان الاوغاد والكلاب قد « تراجعوا وذابوا في الليل ، وانه لابد قد انتصر . » (ص ١٧١ ـ ١٧٠)

اياد احمد ملحم

جامعة بيروت الاميركية

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

صيدا ـ بيروت

لصاحبها شريف عبدالرحمن الانصاري

تاسست سنة ١٩٠٥

تلفون٢٣٧٥٤٥

* *

اغنى دور النشر فى لبنان بالكتاب المدرسي الموضوع من قبل اشهر الاختصاصيين فى فن التربية والتعليم بحيث اصبحت كتبها محط انظار المربين والقيمين على النشء اللبناني وموضع رعايةمن وزارة التربية الوطنية الجليلة التى اوصت مدارسها بتدريس اكثر هذه الكتب فى مدارسها بالقرار رقم ٣٧٣٤ الصادر فى ٨ تموز ١٩٥٤

من اهم هذه المؤلفات :		عدد الاجزاء
الطريقة الجديدة	للاطفال	٢
الطريقة المفيدة	للاطفال	٢
القراءة المفيدة	للابتدائي	٥
الطريقة الواضحة	للاطفال	٢
القراءة الواضحة	للابتدائي	٥
الجغرافيا الابتدائية الحديثة	للابتدائي	٤
الجغرافيا العامة المصورة	للتكميلي	٤
تاريخ لبنان	للابتدائي	٤
الحساب الحديث المصور	للابتدائي	٨
النهج الواضح فى قواعد اللغة	للابتدائي والتكميلي	٩
الجغرافيا الواضحة	للابتدائي	٤
المفيد فى دروس الاشياء	للابتدائي	٥
دروس الاشياء بالمحادثة	للابتدائي	٥
الاخلاق بالقصص	للابتدائي	٤
انا اتعلم واجباتي	للابتدائي	٥
المفيد فى الانشاء	للابتدائي والتكميلي	٨
العلوم والاشياء بالملاحظة	للابتدائي	٥
احدث قواعد الرسم	للابتدائي والتكميلي والثانوي	١٤
السلاسل الحديثة لتعليم الخط الرقعي	للابتدائي	٥
دفاتر الخط الفرنسي	للابتدائي	٥
دفاتر الخط الانكليزي	للابتدائي	٥